

مقاومة سي الطيب بوشندوقة سنة 1861 بمنطقة الجلفة بين الكتابات الأجنبية والحقيقة التاريخية
*The resistance of "Si Al-Tayeb Bouchendouga" 1861 AD in the Djelfa region
 between foreign references and historical truth.*

فريال يحيياوي¹

جامعة الجيلالي اليابس - سيدي بلعباس -

ferial.yahiaoui@univ-sba.dz

تاريخ الوصول 2023/04/18 القبول 2023/07/13 النشر على الخط 2024/01/15
 Received 18/04/2023 Accepted 13/07/2023 Published online 15/01/2024

ملخص:

لا تزال الكثير من الوقائع التاريخية المرتبطة ببلدنا، يكتنفها الغموض، إما لنقص المصادر المحلية أو لانعدامها من الأساس. ومن أجل ذلك تعتبر الكتابات الأجنبية خاصة وثائق الإدارة الاستعمارية في الجزائر، وهي حزان لا يُستهان به، مرجعا لا غنى عنه للباحثين. ومن هذا المنطلق سنحاول في هذا المقال، دراسة إحدى المقاومات الشعبية التي شهدتها الجزائر خلال القرن التاسع عشر، وهي مقاومة سي الطيب بوشندوقة بمنطقة الجلفة عام 1861.

هذه المقاومة تكاد تكون مجهولة في الكتابات الوطنية، لذلك يستهدف المقال دراستها من خلال الوثائق والمصادر والمراجع الأجنبية، التي ما من شك أنها كانت مفيدة لنا في التعرف على تفاصيل مهمة حول شخصية سي الطيب بوشندوقة خاصة الجانب الصوفي منها، بالإضافة إلى عوامل أخرى مؤثرة في شخصيته، كما استطعنا من خلالها رصد طبيعة المواجهات التي دارت بين الثوار والمستوطنين الذين تم استهدافهم خلال هذه المقاومة، ولكن يركز المقال بشكل خاص على مدى مساهمة هذه الكتابات في الوصول بنا إلى الحقيقة التاريخية، مع ما يمكن أن تتضمنه من ذاتية ونظرة متحيزة.

الكلمات المفتاحية: مقاومة سي الطيب بوشندوقة؛ منطقة الجلفة؛ الكتابات الأجنبية؛ الحقيقة التاريخية؛ الاحتلال الفرنسي.

Abstract:

Many of the historical facts related to our country are still shrouded in mystery, either due to the lack of local sources or their absence in the first place. For this reason, foreign writings, especially the documents of the colonial administration in Algeria, are considered a significant reservoir, an indispensable reference for researchers. From this point of view, we will try, in this article, to study one of the popular resistances that Algeria witnessed during the nineteenth century, which is the resistance of Si Al-Tayeb Bouchendouga in the Djelfa region in 1861 AD.

This resistance is almost unknown in the national writings, so the article aims to study it through foreign documents, sources and references, which were undoubtedly useful for us in identifying important details about the personality of Si Al-Tayeb Bouchendouga, especially the Sufi aspect of it, in addition to many other factors. Influencing his personality, as we were able to monitor the nature of the confrontations that took place between the revolutionaries and the settlers who were targeted during this resistance, but the article focuses in particular on the extent to which these writings contributed to bringing us to the historical truth, with what it could include of subjectivity and biased look.

Keywords: The resistance of Si Al-Tayeb Bouchendouga; Djelfa area; foreign references; historical truth; the French occupation.

1. مقدمة:

أعطى استشهاد الثائر التلي بن لكحل، وتراجع الشريف محمد بن عبد الله نحو الجنوب الغربي، ولجوء بن ناصر بن شهرة إلى الأراضي التونسية للفرنسيين، الشعور، بأنهم قضوا على المقاومة المسلحة بمنطقة المضاب العليا الوسطى وشمال الصحراء، خاصة مع توالي طلبات الأمان من طرف القبائل الثائرة بالمنطقة، والتي تأثرت بحجم العنف الذي أبدته قوات الاحتلال، ونجاحها المبكر في تفجير هذه القبائل وتحجيم امكانياتها الاقتصادية، وما زاد الوضع تراجيدية، تمكّن الاحتلال من القضاء على المتبقي من مقاومات القبائل الجنوبية بالجلفة على غرار أولاد طعبة وأولاد أم الإخوة، التي ميّرت ثورتها خمسينيات القرن التاسع عشر. وبناءً على هذا كان استراتيجيو الاحتلال يبحثون عن تعضيد الهدوء المحصّل عليه عبر استتباب النظام وإرساء قواعد الاستيطان والاستعمار، وفي هذا الإطار ظهرت مدينة الجلفة الكولونiale في فيفري 1861، التي شكلت هدفا لثورة سي الطيب بوشندوقة في أفريل 1861، والتي سنتطرق لها من خلال هذه الورقة البحثية، وستكون وسيلتنا إلى ذلك الوثائق والمصادر والمراجع الأجنبية، ذلك أن أحداث هذه الثورة كانت ستظل مجهولة بسبب انعدام الكتابات الوطنية المصدريّة، التي يمكن أن يستعين بها الباحثون في الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

يدور الموضوع حول إشكالية مقاومة سي الطيب بوشندوقة بمنطقة الجلفة من خلال الكتابات الأجنبية، وإلى أي مدى يمكن الاعتماد على هذه الكتابات في إثراء الحقيقة التاريخية حول هذه المقاومة، أو أمام إشكال غياب المصدر المحلي الذي يمكننا من خلاله توسيع أفقنا ومداركنا، أو على الأقل مقارنته مع ما كتبه المستعمرون للاحتفاظ بما يمكن الاحتفاظ به وإقصاء ما يدخل ضمن النظرة الذاتية والمغالاة الاستعمارية، يجد الباحث نفسه في حيرة إذ هل يمكنه أن يعتدّ بالكتابات الرسمية الفرنسية - على وجه التحديد - حول مقاومة سي الطيب بوشندوقة باعتبارها الأثر الوحيد، في تكوين صورة علميّة وموضوعية تعكس بصدق تاريخ هذه المقاومة ؟

2. التعريف بشخصية سي الطيب بوشندوقة:

ولد سي الطيب حوالي سنة 1826، وقد عُرف بانتمائه إلى قبيلة أولاد سي أحمد، رغم أن تحقيقات إدارة الاحتلال ومن خلال عمليات الاستنطاق التي أجرتها على أفراد تواصلوا مع سي الطيب أو كانت لهم معرفة سابقة به، توصّلت إلى أنه لا ينتمي إلى هذه القبيلة، لكنها لم تنف أن يكون من أولاد نايل، وبناءً على ما أورده المترجم العسكري مارك أنطوان آرنو (Marc-Antoine ARNAUD) كان سي الطيب طويل القامة وله لحية بيّنة خفيفة، ووجه نحيل وشاحب، وجنتاه ناتئتان ومتوهجتان تبدو عليها علامات التعب الناجم عن صلواته الطويلة والخاصة، وعيناه تشع بوهج داكن، وأنه ذو تعليم بسيط وبالكاد يُحسن القراءة. وقد أطلق عليه المحيطون به، بما في ذلك أشخاص ذوو مستوى رفيع، اسم "سي الطيب" كشكل من أشكال التبجيل في المخاطبة، كما كانوا يقبلون يديه. ولأنه لم يكن من أولاد سي أحمد، هذا الأمر أضفى عليه هالة من الغموض¹.

¹ بنيامين كلود بروور، صحراء اسمها سلام: تاريخ الشرق الأوسط المعاصر ومجتمعه (عنف الإمبراطورية الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844 - 1902)، تر: أمين الأيوبي، دار الروافد الثقافية، بيروت - وهران، الطبعة الأولى، 2020، ص: 196.

ينتمي سي الطيب إلى الطريقة الرحمانية، وقد بالغ ا. مونجان (E.MANGIN) حين ذكر بأن سي الطيب ينتمي إلى تنظيم متطرف يقوده سي المختار¹، وهذا لأنه يعتبر أحد مقدمي الشيخ المختار، شيخ زاوية أولاد جلال. ولكن سي الطيب لم يكن المقدم الوحيد للزاوية الجلالية بالمنطقة، فقد هناك أيضا سي صدوق بن سفير، ومما يذكر أن وفاة الشيخ المختار، التي كانت قبل نحو تسعة أشهر من تاريخ مقاومة بوشندوقة، خلقت منافسة بين سي الطيب وسي صدوق، وقد كان هذا الأخير يتمتع بثقة الإدارة الفرنسية بالجلفة، كما كانت تربطه علاقة وثيقة مع باشاغا أولاد نايل الشريف بن لحرش، ولهذا السبب كان سي صدوق أحد الذين خضعوا لتحقيقات الإدارة الاستعمارية، رغم أن شهادته كانت مقتضبة ومحيية للأمال².

وُصفت شخصية سي الطيب بالجدية والأهمية، أما ممارساته الصوفية، فقد كانت استثنائية، حيث كان حسب الأشخاص الذين استجوبتهم التحقيقات الفرنسية، يرفع صوته على أصوات الآخرين، كما كان يضرب "البندير" أو الطبل بعنف. وبسرعة اكتسبت الحلقات الابطهالية والاجتماعات التي كان يحضرها خشوعا فريدا. وبفضلها استطاع سي الطيب، أن يكون شعبية وسط قبائل المنطقة، وبلغ صيته كل المناطق المجاورة، حتى أصبح موضوع حديث الجميع. وفي الواقع لقد نال الجانب الصوفي في حياة سي الطيب اهتمام الكتابات الأجنبية، التي قدّمته ليس كزاهد فحسب، بل مرابط يتمتع بقدرات خارقة وعجيبة، وله علاقة بعالم ما وراء الطبيعة³.

اهتمت التحقيقات الفرنسية أيضا، برصد تحركات سي الطيب والأشخاص الذين التقى بهم وأزمة وأمكنة هذه اللقاءات، ورغم أنها لم تستطع بشكل دقيق، توثيق تحركات سي الطيب في تقاريرها، أوردت الكتابات بأنه قبيل هجومه على الجلفة، كان سي الطيب يتنقل بين المخيمات الواقعة في مراعي الزاغرين، ورغم استقراره النسبي لدى أولاد سي أحمد، زار بوشندوقة قبائل أولاد أم هاني وأولاد الغويني وأولاد عبد القادر وأولاد بوعبد الله، وقد أضفت سرعته اللافتة في التنقل بالمنطقة، إيجاءات إضافية على كراماته إلى درجة بلوغه مرتبة الولاية⁴.

3. مقاومة سي الطيب بوشندوقة من خلال الكتابات الأجنبية:

1.3 الهجوم على الجلفة:

مهدت الإدارة الاستعمارية لتأسيس مركز استيطاني بالجلفة، ابتداءً من سنة 1852، فبتاريخ 24 سبتمبر 1852 شرع الجنرال يوسف (Le Général Yousouf) بأوامر من الحاكم العام راندون (Randon) في إقامة برج الجلفة، وهذا بالتزامن مع التخطيط للهجوم على الأغواط، حتى تكون الجلفة قاعدة خلفية للقضاء على المقاومة التي كانت تدور في الجنوب بقيادة الثائر بن ناصر بن شهرة والتلي بن لكحل والشريف محمد بن عبد الله⁵. وعقب النجاح في اقتحام الأغواط، أصدر راندون بتاريخ 22 جويلية

¹ Mangin, *Notes sur l'Histoire de Laghouat*, Revue Africaine, volume 39, 1895, P : 35.

² بنيامين كلود بروور، المرجع السابق، ص ص 200، 201.

³ نفسه، ص ص 195، 196.

⁴ نفسه، ص 197.

⁵ محمد الطيب سالت: مدينة الجلفة من التأسيس الإداري إلى الاستقلال الوطني 1861/1962، دار ومضة 1، الجزائر، الطبعة الأولى، 2021، ص:

1853، أمرا بإلحاق القبائل الواقعة بمنطقة الجلفة بدائرة الأغواط، وقد لاقى هذا الأمر استحسان وزير الحرب عندئذ، فأمر الجنرال بيليسي (Le Maréchal Pélissier) بإمضائه بتاريخ 9 سبتمبر 1853¹. وقد أوردت الإحصائيات بأن مركز الجلفة كان يضم سنة 1860 تعدادا سكانيا يبلغ 114 نسمة، وسرعان ما أصدر نابليون الثالث (Napoléon III) في 20 فيفري 1861، قرارا يقضي بتكوين مركز الجلفة العسكري ببناء 55 منزل على مساحة قدرها 1770 هكتارا².

بينما كانت القرارات التنظيمية للمركز الاستيطاني الجديد، تتوالى، كان من الطبيعي أن يكون هجوم سي الطيب مثير هلع واحباط للفرنسيين، خاصة مع ما أبدته القبائل من استسلام لسلطات الاحتلال عقب نجاحها في احتلال الأغواط. هذا الأمر أشعر الفرنسيين، بأنه ليس ثمة ما يعكر صفو الأمان الذي حصلوا عليه، وبأنهم اكتسبوا تفويضا مطلقا في شؤون هذه القبائل، لذلك كانت التخطيطات تدور حول العمل على دفع الاستيطان نحو الداخل واستئناف عملية الاحتلال، والمضي نحو الجنوب الكبير بخطى ثابتة ومستقرة.

تتفق المصادر والمراجع الأجنبية على أن زيارة زاوية أولاد جلال، كانت الغطاء الظاهري لتحركات سي الطيب ورجاله، ففي يوم 12 أفريل من عام 1861، وهو يوم عيد فطر، احتفل سي الطيب بالعيد مع أولاد الغويني، وكذلك زار أولاد أم هاني، وأولاد الشريف (من أولاد سي أحمد)، حيث استضافه أحد رجال القبيلة وهو القايد بن سليم بن فضيل، وقد استحالت الزيارة إلى اجتماع كبير، حضره حوالي ثلاثون شخصا من المريدين، وقد كانوا ينتمون إلى أولاد سي محمد، وكذلك شهد التجمع حضور أفراد من الصحاري الخبيزات، وخلال هذا الاجتماع، أعلن سي الطيب عزمه على تأدية زيارة إلى الزاوية الجلالية، وضحى عبد الرحمن بن سالم في عين الرّيش، الواقعة على الطريق المؤدي إلى أولاد جلال، ومع حلول ظهر يوم 12 أفريل 1861، سار سي الطيب ورجاله نحو طريقهم³.

على حدّ ما ذكرت الكتابات الأجنبية، أنه عندما كان سي الطيب ورجاله يأخذون الطريق الطبيعي نحو عين الرّيش وأولاد جلال، توقفت المجموعة عند المويلح التي تقع شرقيّ الجلفة عند تقاطع الطريق المؤديّ إلى بوسعادة وأولاد جلال، حيث تناولوا غداءهم، وفي هذه النقطة بدأت نوايا سي الطيب تتضح، حيث انفصل عن المجموعة النسوة والصبية، بينما استأنف الباقون سيرهم، وعندما وصلوا إلى بوتريفيس أفصح سي الطيب عن عزمه على مهاجمة القرية الاستيطانية بالجلفة والقاعدة العسكرية الفرنسية، وبعد خطاب حماسي، كانت الزيارة الصوفية قد تحوّلت فعلا إلى ثورة شعبية⁴.

كان عدد المقاومين بين 50 - 60 رجل وبعض الصبيان، وفيما ذكرت الكتابات من أسماء، نجد بالإضافة إلى سي الطيب قائد المجموعة، مصطفى بن جريد من أولاد سليم أحد فروع أولاد سي أحمد، وأيضا علي بن مختار، والأخضر بن الفار، وهاشمي بن عمير. وقد كانت أسلحتهم محدودة جدا، فقد تمثلت في عصيّ وحجارة وسكاكين، واستطاعوا تجاوز الحامية وانحدروا نحو الجلفة،

¹ المبيشر ورود الأخبار من جميع الأقطار، ع: 146، 03 أكتوبر 1853، ص: 1.

² كمال بيرم: كتابات الضباط الفرنسيين حول الجلفة والصحاري، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، ع: 10، منشورات جامعة الجلفة، 2014، ص: 71.

³ بنيامين كلود بروور، المرجع السابق، ص: 203.

⁴ بنيامين كلود بروور، المرجع السابق، ص ص: 204، 205.

وقد كان ذلك ليلة 14 - 15 أبريل 1861. أغار الثوّار أثناء هجومهم على خمسة منازل ومقهى مغربي مقام على الطراز العربي المحلي، وقد راح جرّاء هذا الهجوم ثلاثة أوروبيين، وأصيب بجروح خطيرة ثلاثة مستوطنين وعاملين من الأغواط وثلاثة جنود¹. تأخر الجنود الفرنسيون في استيعاب هذه الثورة وحماية المستوطنين، ولكنهم استطاعوا إلحاق خسائر بمجموعة الثوّار، فرغم أن الأرشيقات الفرنسية لا تذكر تفاصيل كثيرة حول ذلك، ولكنها تذكر بأن اثنين من المقاومين قتلًا متأثرين بجراح خلفتها خردق طلقات نارية صدرت من بنادق المستوطنين الذين كانوا مسلّحين، في تعبير عن صورة من عدم الأمان الذي كانوا يعيشونه، كما تذكر بأن أحد المقاومين قتل كذلك برصاص بندقية عسكرية².

ذكر مونجان بأن قيادة الأغواط التي كان على رأسها دي سوني (Louis Gaston de SONIS) استعانت بقومية الأرياء، وتمكنت من إلقاء القبض على مجموعة من المقاومين ولم يكن من بينهم سي الطيب، وبدون ترّيث عقد دي سوني مجلس حرب سريع، ونقّذ فيهم حكم الإعدام وقد كان عددهم سبعة³، وهذا كان يوم 19 أبريل أي بعد أربعة أيام فقط من وقوع الهجوم، ذلك أن دي سوني كان يصرّ على أن تكون العدالة الفرنسية سريعة وقاسية من جهة، ومن جهة أخرى لتفادي وقوع تمرد كبير⁴.

دعّم الأب فرانسوا دوفيلاري (François DE VILLARET) هذه الرواية، وذكر بأن من أصل ثمانية عشرة شخص تم التحقيق معهم، أدين سبعة منهم، وقد أعدموا رميا بالرصاص، وهم: بن عمر بن سعد، بلقاسم بن صديق، يحيى بن الطيب، علي بن مختار، مبارك بن عبد المالك، بوبكر بن علي، ودراجة بن يطو، أربعة من هؤلاء المقاومين ينتمون إلى أولاد سي أحمد وثلاثة من الصحاري الخبيزات⁵.

إن هذه التفاصيل تتضارب مع رواية المارشال بيسيلي، ففي مراسلاته لوزير الحرب أواخر أبريل 1861، ذكر بشأن ما أسماه: "الواقعة المؤسفة التي حدثت في مدينة الجلفة"، بأن الجنود الفرنسيين استطاعوا إلحاق بأربعة من المقاومين فقط والذين نُفّذ فيهم حكم الإعدام، بينما استطاع سي الطيب والباقون الابتعاد⁶.

وهاتين الروايتين تتعارضان بدورهما مع ما تحتفظ به الذاكرة الشعبية بأن الجنود لم يستطيعوا إلحاق بالثوار الذين ابتعدوا عن المنطقة، وهذا ما يفسّر الغموض والسرعة التي تمّت بها معاقبة المعتقلين، الذين كانوا من المدنيين ولا علاقة لهم بحركة المقاومة، وكانوا ستة عشر شخصا، تمت تصفيتهم بدفنهم أحياء تحت الأرض في المكان المعروف اليوم بوسط مدينة الجلفة باسم مطمورة ستة عشر⁷.

¹ نفسه، ص: 160، 209.

² نفسه، ص 213.

³ Mangin, op-cit , P : 35.

⁴ بنيامين كلود بروور، المرجع السابق، ص: 202.

⁵ François DE VILLARET : *Siècles de steppe Jalons pour l'histoire de Djelfa*, T : 2, center de documentation Saharienne, Ghardia, 1995, p : 125.

⁶ بنيامين كلود بروور، المرجع السابق، ص: 160.

⁷ نايبي سنوسي: *مساهمة قبائل أولاد نايل في المقاومات الشعبية من خلال المصادر الفرنسية 1836 - 1890*، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، إشراف: أ. د: بوعزة بوضرساية، جامعة الجزائر2، 2013 - 2014، ص: 144.

لم يستسغ بيليسي والإدارة المحليّة بالجلفة هذه الثورة، وقد طالت الاتهامات الباشاغا الشريف بن لحرش، واهتزت الثقة التي كانت موضوعة فيه، واتهم بالتواطؤ، وأنه غرض الطرف عن سي الطيب ومن معه من مقاومين¹، وازدادت شكوك السلطات الفرنسية في ولاء بن لحرش، بسبب لجوء الثوار بعد ذلك إلى زاوية نفطة بتونس، والتي كانت تربطها علاقات صداقة مع زاوية بن لحرش الرحمانية، وهذا ما نستشفه من رسالة بيليسي حيث قال: "...وبلغني أن الطيب بوشندوقة ونفرين آخرين متهمين معه في غارة دشرة جلفة الذي كنت أعلمتكم بتفصيلها في جوابي الأخير هربوا في زاوية نفطة ووجدوا هناك من سي مبروك بن عزوز في البرج صاحب باش آغة أولاد سي محمد الجلفاوي وشقيق كبير الزاوية المذكور..."².

استغلت زاوية نفطة الامتيازات الممنوحة لها أو ما يسمّى بـ "حرم الزاوية" وهو المساحة المحيطة بالمقام حيث لا يستطيع كائن من كان حرقها أو التعدي عليها في إيواء الثوار، وكل من يلتجأ لها للإفلات من يدي السلطة³. ومن جهته بيليسي صمّم على القبض على بوشندوقة ومن معه فراسل قنصل فرنسا في تونس، من أجل الاتصال بالباي محمد الصادق لضمان وساطته لدى زاوية نفطة حتى تسلم سي الطيب ومما جاء في الرسالة المؤرخة بيوم 21 جوان 1861: "أن المارشال بيليسيه حارص جدا في طلب القبض على المسمّى الطيب بن شندوقة المتهم مع نفرين آخرين في الغورة التي وقعت على دشرة الجلفة في الجزائر وهربوا في زاوية نفطة في العمالة التونسية ويطلب كذلك تسليم المذكور في أيدينا"⁴.

ونظرا لمضايقات السلطات الفرنسية على القائمين على الزاوية، التحق سي الطيب ورفاقه بالثائر بن ناصر بن شهرة وهذا ما يقوّض تصوّرات الحاكم العام بيليسي بأن تمرد سي الطيب بوشندوقة حادث منعزل ولا علاقة له بالسياسة، حيث جاء في الرسالة السابقة: "والثلاثة أنفار المذكورين سافروا في الحين ولحقوا جرة ناصر بن شهرة فالمرغوب منكم أن تطلبوا من جناب الباي أن يسلمنا الأنفار المذكورة ليتحقق غيرهم أن التراب التونسي لا يحمي الجناة بمثل هاته الجنايات"⁵. ونجد بيليسي حريص على النيل من سي الطيب، حيث أتبع الرسالة الأولى، برسالة أخرى في شهر جويلية 1861، يطلب من السلطات التونسية الإذن بالبحث عن سي الطيب ومن معه⁶.

2.3 الكتابات الأجنبية ومدى مساهمتها في التأريخ لمقاومة بوشندوقة:

إن أول ما يمكن ملاحظته عن المصادر التي أرخت لمقاومة 1861 بالجلفة، وبشكل خاص ما دونه موبجان وآرنو، وحتى ما كتب لاحقا، نجده في مجمله يستقي معلوماته ويبنى تصوّراته من خلال التقرير الذي أرسله المارشال بيليسي إلى وزير الحرب، وما من شك أن هذا التقرير كان مفيدا لنا، خاصة وأن بيليسي اعتمد فيه على شهادات الجزائريين الذين خضعوا لتحقيقات الإدارة الاستعمارية،

¹ Mangin, op-cit , P : 36.

² الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق: 212، الوثيقة رقم: 34، 38.

³ إدريس رائسي: القبائل الحدودية التونسية - الجزائرية بين الإجارة والإغارة 1830 - 1881، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2016، ص: 88.

⁴ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق: 212، الوثيقة رقم: 34، 38.

⁵ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق: 212، الوثيقة رقم: 34، 38.

⁶ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق: 212، الوثيقة رقم: 41.

مع ملاحظة أنه لا يمكن الجزم بعدم تعرض هذه الشهادات للانتقائية والتوجيه، وهذا طبيعي بالنظر إلى حجم القضايا التي أثارها هذه المقاومة. فإحدى القضايا التي نوقشت على خلفية مقاومة سي الطيب بوشندوقة، ما تطرقت له الصحافة الباريسية فيما يخص طبيعة الحكم الفرنسي في الجزائر، وانتقاد الرأي العام الفرنسي للطريقة التعسفية التي تم من خلالها تنفيذ حكم الإعدام حيث رأى بأنها تفتقر للعدالة، فلم يُسمح للمتهمين بحق النقض والدفاع عن أنفسهم، ورغم تبريرات دي سوني، هاجمت الصحافة الفرنسية في فرنسا بيليسي وحكومته العسكرية، وهذا الأخير من أجل الحفاظ على سمعته، أقدم على إقالة دي سوني من وظائفه بالأغواط يوم 19 ماي 1861، وأعادته إلى الفوج القتالي الذي كان يترأسه بمعسكر، وعيّن مكانه لابروس (Labrousse)¹. كانت هذه السياسة والعقوبات الارتجالية أيضا، تتناقض مع ليبرالية نابليون الثالث الجديدة، وتروجيه لإقامة "مملكة عربية" وهو أحد أغرب المشاريع الاستعمارية، التي كانت تنوي فرنسا تطبيقها في الجزائر.

أما المسألة الثانية التي أثّرت في أعقاب ثورة سي الطيب، هو مستقبل الاستيطان في الجزائر عموما، فإذا كان المستوطنون يفتقرون للأمان، كيف سيواصل الفرنسيون سياساتهم ومشاريعهم التوسعية، ومن أجل تبديد هذه المخاوف، برر بيليسي مقاومة سي الطيب بأنها: "...حادثة معزولة ولا تهدد الأمن في الأراضي الجنوبية..." وأضاف بأن: "رجال سي طيب سيئي التسليح ليسوا طليعة تمرّد كبير، وإنما ضحايا إغراءات سي طيب..."²، وعلى العموم كانت هذه طريقة رجال الإدارة الاستعمارية في تبرير حركة المقاومة التي كانت تشهدها الجزائر، فأیضا مونجان نفى أن يكون للثورة أبعاد سياسية ووطنية ووصف الحركة بأنها: "عمل منعزل، قام به عدد قليل من النعساء، تلاعب بهم رجل متطرف، اسمه طيب بوشندوقة"³.

نستنتج من هذه الإشكالات أن هناك الكثير من الدوافع التي من شأنها أن تمسّ بموضوعية وصدقية شهادات رجال الإدارة الاستعمارية في الجزائر، وتعطينا في الوقت ذاته صورة عن حجم الذاتية التي يمكن أن تطبع رواياتهم، وإلى أي حدّ يمكن الأخذ بها فيما يخص التأريخ لمقاومة سي الطيب بوشندوقة.

تعدّ أطروحة الباحث بنيامين كلاود بروور (Benjamin Claude BROWER)، والتي جاءت بعنوان "A Desert Named Peace" أو "صحراء اسمها سلام" من أهم الدراسات التي تطرقت لمقاومة سي الطيب بوشندوقة. وقد كان الباحث بنيامين بروور موضوعيا، حين قدّم هذه المقاومة في إطار ثورة شعبية. ورغم أنه درس أيضا تقرير بيليسي الذي كان يعدّ هذه المقاومة كحركة اجتماعية أو لا تزيد عن كونها ثورة فلاحين جزائريين، وتمثّل إحدى تقلبات سكان الأرياف بالجزائر، حلّل بروور المبررات الاجتماعية والاقتصادية، وقد ركّز على أزمة ستينات القرن التاسع عشر، والتذمر الذي كان يعيشه السكان المحليون جرّاء نفوق ماشيتهم، وتلف محاصيلهم، وارتفاع أسعار المواد الاستهلاكية، والنزاعات التي أحدثتها تغيّر أنماط استخدام الأرض وكذا تغيّر الانتاج، والانتقال القسري من نظام اجتماعي واقتصادي إلى نظام مغاير، الأمر الذي أحدث صدوعا داخل المجتمع الرعوي، زيادة على هذا تطرق للسياسة الضريبية وارتفاع حجم الضرائب التي تحمّلها أولاد نايل خلال عام 1861، ناهيك عن تخطّطهم في المشاكل الطبيعية كالجفاف المتواصل⁴.

¹ Mangin, op-cit, P : 36.

² بنيامين كلاود بروور، المرجع السابق، ص: 161.

³ Mangin, op-cit, P : 36.

⁴ بنيامين كلاود بروور، المرجع السابق، ص: 216.

ولكن لم يكتف الأستاذ بروور بالشق الاجتماعي والاقتصادي لمقاومة سي الطيب، فقد أعطى صورة عن الازدواجية في تقرير المارشال بيليسي، الذي كان طرحه متناقضا حيث اعتبر مقاومة سي الطيب شأنها شأن ثورات القرن التاسع عشر في الجزائر، هي ثورة لها خلفيّة ماديّة، بينما عاد ليقول بأن سي الطيب ومن معه من مقاومين هم أشخاص متطرفون وفاقدون لعقولهم. ولذلك أورد بروور بعض التفسيرات الدينية والروحية، وقدم دراسة سيكولوجية لشخصية سي الطيب الصوفية، واستحضر دور الشيخ المختار بن خليفة والطريقة الرحمانية وزاوية نفطة. وليس هذا فحسب فقد أورد هذا الباحث دراسة إثنوغرافية حول قبائل أولاد نايل. ولكن ما يهتّمنا هنا هو دراسته لمقاومة 1861 بالهلفة حيث وضعها في إطار تأثيرات الوضع الاستعماري في العلاقة بين الزعامات الدينية المتنوعة وبالنظام السياسي، عكس الكثير من الدراسات التي كانت تسعى لفهم دور الإسلام في تأجيج حركة المقاومة، ركز الأستاذ بروور على المرجعية الاجتماعية والسياسية، عوضا عن المرجعية العقائدية والإيديولوجية¹.

4. خاتمة:

ختاما يمكن القول، أن الكتابات الأجنبية حول مقاومة سي الطيب بوشندوقة بمنطقة الهلفة جعلت من تقرير المارشال بيليسي حول هذه المقاومة قاعدة ومنطلقا لبناء قراءتها وتصوّرها الخاص، وزيادة على أحادية المصدر حول هذه المقاومة، لا يجب أن ننسى ما يفرضه المنهج التاريخي حول دراسة ظروف كتابة الوثيقة التاريخية والعوامل المتحكمة في كتابتها وموقعه من الحدث، وفيما يتعلق بذلك نجد ضمن ما كتبه بيليسي العديد من التحفظات كالوقت الذي بنى فيه أحكامه وتصوّره وهو بضعة أيام فقط عقب المقاومة، وفي ذات الوقت الذي كان فيه مضغوطة من الحكومة الفرنسية والصحافة وانتقادات الرأي العام. ولكن رغم هذه التحفظات فإنه مع الافتقار إلى المادة المصدّرية المحليّة، وإذا سلّمنا تفاؤلا بأنه يمكن في المستقبل تغطية هذا النقص، والعثور على مادّة تاريخية محليّة تطرح تفاصيل جديدة، تبقى الكتابات الأجنبية، حاليا، هي المسلك الوحيد للتعرف على وقائع هذه الثورة.

¹ نفسه، ص: 220.

5. قائمة المراجع:

الوثائق الأرشيفية:

1. الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق: 212، الوثيقة رقم: 34، 38.
2. الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق: 212، الوثيقة رقم: 41.

المؤلفات:

1. إدريس رائسي: القبائل الحدودية التونسية - الجزائرية بين الإجارة والإغارة 1830 - 1881، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2016.
2. بنيامين كلود بروور، صحراء اسمها سلام: تاريخ الشرق الأوسط المعاصر ومجتمعه (عنف الإمبراطورية الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844 - 1902)، تر: أمين الأيوبي، دار الروافد الثقافية، بيروت - وهران، الطبعة الأولى، 2020.
3. محمد الطيب سالت: مدينة الجلفة من التأسيس الإداري إلى الاستقلال الوطني 1861/1962، دار ومضة، الجزائر، الطبعة الأولى، 2021.
4. François DE VILLARET : Siècles de steppe Jalons pour l'histoire de Djelfa, T : 2, center de documentation Saharienne, Ghardia, 1995.
5. Mangin, Notes sur l'Histoire de Laghouat, Revue Africaine, volume 39, 1895.

الرسائل العلمية:

1. نايبي سنوسي: مساهمة قبائل أولاد نايل في المقاومات الشعبية من خلال المصادر الفرنسية 1836 - 1890، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، إشراف: أ. د. بوعزة بوضرساية، جامعة الجزائر2، 2013 - 2014.

المقالات:

1. كمال بيرم: كتابات الضباط الفرنسيين حول الجلفة والصحاري، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، ع: 10، منشورات جامعة الجلفة، 2014.
2. المبشر ورود الأخبار من جميع الأقطار، ع: 146، 03 أكتوبر 1853.